مقاومة الزوايا للاحتلال في منطقة القبائل

الأستاذ عبد الرحمن مصطفاوي
أمين عام تنسيقية الزوايا بتيزي وزو

المقاومة فطرة الله سبحانه وتعالى في جميع المخلوقات ، يلجأ إليها هذا الكائن إذا مس في شيء من ممتلكاته ، ولا يلجأ إليها كائن آخر إلا إذا مس في جوهر حياته ... .

ويختلف الإنسان - طبعا - عن سائر الكائنات في اتساع وتعقد دوائر تعلقاته واهتماماته، فهو بفطرته وجبلته أسمى المخلوقات على الإطلاق لقوله تعالى «ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا» . وأحرصها في الدفاع عن ثرواته المادية والمعنوية ولكنه قد يروض من خلال شهواته وأهوائه فينتكس همه وتساميه فيستبدل «الذي هو أدنى بالذي هو خير» .. ويضعف في جانب المقاومة عن القيم والمبادئ ويحرص على المقاومة عن الشهوات وقد يقاوم بعض الناس عن القيم، ويرفع له في ذلك ذكر، ولكنه إذا أصيب فيما يتعلق بغرائزه وأهوائه وعاجل أمره استرخص القيم وتراجع عما كان عليه من ذي قبل[1] .

فالمقاومة مصطلح سياسي حديث التداول على الألسنة ، وهو لفظ مشتق من الفعل الثلاثي (قام) الذي من معانيه ماورد على ألسنة فتية أهل الكهف ، قال الله تعالى : «... إذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والأرض لن ندعو من دونه إلها» وهو هنا بمعنى العزم والثبات - وفي كلام الناس قام في وجهه أي صده ومنعه وصارعه أو قاومه، وسوق قائمة أي نافقة وسوق نائمة أي كاسدة[2]، فالقيام عن قعود والجلوس عن قيام، إذ الصواب اللغوي أن نقول كان نائما فقعد وكان واقفا فجلس ... ومنه قوله تعالى : « وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما » .

ومن هذه الوقفة الدلالية للألفاظ ندرك أن للمقاوم شحنة نفسية وطاقة معنوية لاينبري أحد للمقاومة إلا بهما ، فهي التي تنقله من السكون إلى الحركة ، أو العكس وتقوى هذه الطاقة أو تضعف بقوة أو ضعف الدافع لها .

قال الشاعر : على قدر أهل العزم تأتي العزائم وتأتي على قدر الكرام المكارم
وتعظم في عين الصغير صغارها وتصغر في عين العظيم العظائم

ومادام ثمن المقاومة التحريرية هو بذل النفس والنفيس ، فإنها لاتنشد إلا ممن يرى القعود عنها هلاكا لنفسه ونفيسه ، وبما أن الإحتلال الفرنسي لبلادنا يشمل انتهاك الأموال والأبدان ، والدين والقيم ، فقد يهون على ذي المروءة فقد ماله ولكنه لا يرضى بفقد شرفه وعزته ، ومن هنا نفهم :

- تقاعس أهل الأهواء عن الاستجابة لنداءات المقاومة ، أو الثبات عليها ، لأن الشعور بالفرق بينهم وبين محتلهم وغاصبهم أقل شأنا من أن يدفعهم إلى المقاومة والتضحية ماداموا لايرونه مناقضا لهم مخالفا لمآربهم .

- سرعة الإستجابة لنداءات المقاومة من أهل القيم والمبادئ السامية، الذين يهون عليهم فقد عرض من أعراض الأهواء ، ولكنهم ، لايقبلون السوم في قيمهم وعناصر سؤددهم ولو كلفهم ذلك دفع أرواحهم الغالية .

وتؤكد التقارير التاريخية ، والممارسات الميدانية للسلطات الفرنسية أن الدخول إلى الجزائر كان بهدف طمس معالم الشخصية الإسلامية للأمة والإستحواذ بعد ذلك على خيرات البلاد وثروات العباد ، فهذا الرحالة (POUJOULAT) وهو صديق الجنرال (بيجو) قال : (إن الحرب التي نقوم بها في إفريقيا إنما هي حلقة من حلقات الحروب الصليبية) .. وهذا الكاتب (مارسيل امريت MARCEL EMIRIT) حيث قال : (كان العربي (الجزائري) في عام 1830م يعرف القراءة والكتابة ، ولكنه أصبح يتخبط في ظلام الجهل عندما مضى نصف قرن على الإحتلال)[3] .. وهذا ألكسي دي طو كفيل DE TOCQUEVILLE . عام 1847م قال : (لقد وضعنا أيدينا في كل مكان على مداخيلها (أملاك الأوقاف)، وذلك بتحويلها إلى أشياء أخرى ، عكس الأشياء التي كانت قد خصصت لها ، لقد أضعنا المراكز الخيرية ، أهملنا المدارس ، شتتنا الزوايا أطفئت الأنوار

من حولنا وقد انتهى انتقاء وتوظيف رجال الدين والقضاة ، أي أننا جعلنا المجتمع الإسلامي أكثر بؤسا وأكثر تشتتا وأكثر جهلا وهمجية مما كان عليه قبل أن يتعرف علينا» [4] . .

ولقد استنفرت فرنسا في حملتها هذه كل وسائل الدعم والتأييد من الأوروبيين جميعا باعتبارها امتدادا للحروب الصليبية كما ورد في تقرير (POUJOULAT) وغيره . . وثأرا وانتقاما للفتوحات الإسلامية التي زحفت على أوروبا من شرقها وغربها حتى كاد محيط البحر الأبيض المتوسط أن يلتئم بعقد الإسلام وإشعاعه . .

فاستنهضت فرنسا الكنيسة وقساوتها بكل أطيافهم ، ولبوا النداء بكل حقد وضغينة بل إن منهم من ركب البحر وشارك في الحملات محرضا ومستبيحا لانتهاكات يندى لها جبين الكنيسة على مر الزمان .

كما اجتهدت قوات الاحتلال في إغراء الطامعين المنبوذين بخصب الأرض واعتدال الطقس ، ووفرة أسباب الثراء . . فتكالب الفريقان معا : الصليبيون الحاقدون والغاصبون الجشعون على حين غرة وجهل وشتات في الرعاة والرعية من المسلمين .

ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه يهدم ، ومن لايتقي الشتم يشتم

فلم يتعظ الثور الأسود بما وقع للثور الأبيض ، وقد وقع لمسلمي الأندلس بالأمس مايجب أن يتعظ به مسلموا المغرب والمسلمون في كل زمان ومكان .

وفي مثل هذه النكبات المريرة من الصراعات الداخلية ، والأطماع الخارجية وسقوط الأندلس ، فتح الله تعالى على بعض العباد بإنشاء مؤسسات تربوية تكوينية بسيطة المظهر قوية الأثر والمخبر ألا وهي الزاوية ، التي لانخالها سميت كذلك إلا لتكون ركنا ركينا يلجأ إليه لاستجماع عناصر القوة وأسباب النصر وتجديد الهمة .

فالزاوية مؤسسة كاملة متعددة الإختصاصات ـ كأنها أنشئت لتكون بديلا يملأ الفراغ الهائل الذي أحدثته ظروف الفشل المتراكم من عصر مابعد الموحدين بل هي (عصب المجتمع الإسلامي في الجزائر ، فهي التي حافظت على البنية الإجتماعية ، وعلى تماسك الأسرة والمجتمع ... ولو كانت في الأندلس ماخرج الإسلام منها)[1] .

موقف الزوايا من الاحتلال :

عندما أرسل الداي حسين على إثر سماعه بخبر الحملة الفرنسية التي نزلت بسيدي فرج رسائل إلى مختلف القبائل للإنطلاق جميعا نحو العاصمة ، وكانت كل قبيلة أو قبيلتين تسير تحت قيادة زعيم وتحت رايات الزوايا وأعلامها .

وقد قدر عددهم الضابط (روبان) بحوالي 25 ألف رجل، واستقبلهم الداي حسين عتد وصولهم إلى مشارف العاصمة بكل حفاوة ووزع على بعضهم أسلحة ووعدهم بتقديم كل مايحتاجون إليه، وتمركزوا في نواحي الحراش، ثم انتقلوا إلى ناحية اسطوالي وشاركوا في المعارك التي دارت هناك ، ثم في متيجة بعد 05 جويلية 1830م .. وبعدها تم الإنسحاب إلى ماوراء سهل متيجة ، وفي اجتماع لهم في تمانتفوست قرروا مواصلة الحرب ورفض أي سلم يمكن إبرامه مع فرنسا، وقد شجعهم على اتخاذ هذا القرار الحاسم الانتصار الذي حققوه في البليدة على قوات (دي بورمون) .

وسرعان ماادركت السلطات الفرنسية ما للزوايا من مكانة في المجتمع الجزائري بعد أن كان همها الأول فهم الواقع الإجتماعي والإشكالات التي يسير عليها ولاسيما بعد سلسلة من الهزائم التي تلقتها الجيوش الفرنسية .

فهذه مقاومة الأمير عبد القادر بعيد الدخول الإستدماري ، وهو شخصية إسلامية تربى في أحضان أسرة عريقة في التدين ، وكان والده رجل علم وتصوف وجهاد ، وكانت الزاوية القادرية التي تسيرها أسرته مركز إشعاع لهذه البيئة الدينية العلمية ، وقد تخرج فيها الأمير إماما عالما ، ومفكرا مستنيرا ، وقائدا مجاهدا ، فبايعته الأمة أميرا ، ولقبته (ناصر الدين) [1] .

واستطاع الأمير عبد القادر أن يجمع في جهاده مابين التصدي للغزو الفرنسي الصليبي بسيفه ، في المعارك الضارية ومن إسهامه بفكره وقلمه في عملية بناء الصحوة وإيقاظ الأمة ، مثل جمال الدين وغيره .

فقد حرص الأمير على توحيد الصفوف ، حيث وجد في الزوايا والطريقة الرحمانية ببلاد القبائل نعم السند ، وقوة العضد ، وخاصة بعد زيارة له إلى المنطقة عام 1839 حيث توجه مباشرة إلى زاوية الشيخ بن عبد الرحمن ، ومنها إلى أماكن أخرى وتحت حراسة ومساعدة طلاب الزوايا ، وعين عليها (المنطقة) أحمد بن سالم زعيما عاما لتنظيم المقاومة كما عين ابن زعموم ، وبلقاسم أوقاسي ، وسي الجودي ، كل في ناحية .

وقد كان معظم علماء الزوايا وشيوخ الطرق الصوفية لايفرقون بين الروح الدينية والعاطفة الوطنية في نفوس الجزائريين ، وخاصة بعد الإحتلال ، وهذا قبل ظهور الحركات الوطنية ببعدها السياسي ، إذ استمر الشعب الجزائري بهذه الروح والعاطفة

من مقاومة إلى أخرى، وشهد المحتلون أنفسهم بهذه الحقيقة التاريخية حيث قال العقيد (دونوفو DENEUVEU) : (وهذا التنظيم الخفي، والقوي معنويا (نظام الزوايا والطرق الصوفية) هو الذي كان يسمح للجزائريين بالثقة في أناس يدعونهم باسم (الله ومحمد) إلى الثورة ويتنازعونهم من أعمالهم الزراعية ، بينما نضطر نحن إلى استعمال القوة باستمرار لإجبار الأهالي على اتباع آرائنا[2] .

وهذا العقيد كان رئيسا للمحافظة السياسية وقدم درسا بعنوان : (الإخوان والطرق الدينية لدى مسلمي الجزائر عام 1845) حاول أن يكشف فيها القناع عن أشياء كثيرة لم يكن الفرنسيون على علم بها حول الزوايا في تنظيمها أو علاقاتها أو في الوسائل التي تستخدمها ، أو نفوذها السياسي والديني ، وقد جاءت هذه الدراسة بعد فترة طويلة من التحريات التي قام بها المؤلف داخل المجتمع الجزائري من استجوابات إلى معايشة ، وقد أفصح المؤلف عن الأهداف التي حملته لتناول هذه الدراسة بقوله : (إن هذا العمل يعتبر ثمرة لجهد قمنا به من أجل أولئك الرجال الذين يحتلون مواقع متقدمة في هذه الأرض الإفريقية ، ومن أجل أن يستفيدوا منها في توسعهم داخل هذه الأرض) .. وماهؤلاء الرجال إلا جيوش الغزاة ، من عساكر وفرق التنصير .

وأصبح الكتاب حقيقة مصدرا لايستغني عنه الباحث المختص ، أو كل من له اهتمام بالزوايا والمسائل الدينية في الجزائر ، كما يعد الكتاب ضوء أحمر للحكومة الفرنسية لتهتم بقضايا الزوايا في سعيها لمعرفة البلد .

وقد شرعت الحكومة فعلا في إصدار تعليمات لضباط المكاتب العربية حول ضرورة اكتشاف الخلايا الجهادية ، ففي تاريخ 27 نوفمبر 1847 أصدر الحاكم العام أمرا إلى كل المكاتب العربية يؤكد على ضرورة القيام بدراسة ومراقبة الزوايا والمساجد ... ونشاط كل طريقة وتنظيماتها ، والعلاقة بينها وبين غيرها ، والوسائل التي تستعملها في تحريض الجماهير ضد الوجود الفرنسي ، وجاء هذا الأمر بعدما لوحظ إهمال تلك الجوانب في التقارير اليومية والشهرية وعلى الرغم من المتابعة الدقيقة ، فإن جهاز المخابرات الفرنسية قد عجز عن اكتشاف شيء واضح للتنظيمات الداخلية لهذه الزوايا ، وقد عبر عن ذلك (ماكماهون) عام 1851 قائلا : (يجب على الإنسان أن يقضي حياته كلها في الزاوية حتى يعرف مايجري فيها ومايقال فيها) .

وذلك بسبب قوة نفوذ الزوايا ، ولاسيما الطريقة الرحمانية التي قال عنها (دونوفو DENEVEU) : (كل خطوة نخطوها في الجزائر إلا ونلاحظ تواجد الطريقة الرحمانية

بمحاولاتها القضاء على المسيحيين ، لأنها (الطريقة الرحمانية) متمكنة من إحداث فجوة عميقة بين الجماهير الشعبية والسلطة الفرنسية) ، ومن ذلك ما أشارت إليه أيضا ايفون توران في كتابها : ـ المجابهة الثقافية في الجزائر المستعمرة ـ قالت : (فمنذ استقرارهم (أي الفرنسيين بالجزائر) قرروا إنشاء مدارس للأطفال المسلمين ، ولقد كانت دهشتهم كبيرة حينما لم يروا أحدا يدخلها ...) وفسرت الظاهرة بتأثير الزوايا على السكان .

وهذا تقرير (شارون) الحاكم العام الفرنسي في الجزائر ، إلى وزير الدفاع بتاريخ : 22 ديسمبر 1849 ، ويقع هذا التقرير الصارخ في 39 صفحة ، وهو موجود في أرشيف بـ (أكس آن بروفانس) ، ونقتطف منه مايلي : (... إن الذي حدث يبرهن بوضوح ، أننا لايمكن أن نحصل عل هدوء تام في هذه البلاد بوجود شعب متعصب سهل للتحريض ، هذا الشعب العربي يجب علينا في كل لحظة أن نتوقع ظهور أحداث جديدة ، وأن نكون على استعداد دائم لقمعها .... وإن الزوايا هي المعمل الحقيقي للتعصب ، وهي السبب وراء كل القلاقل) .

وقد أدت الزوايا والطريقة الرحمانية دورا أساسيا في كل الحركات الجهادية وكان من قادتها بمنطقة القبائل محمد بن لمجد بن عبد الملك المشهور بـ (بوبغلة) ولالة فاطمة نسومر وبمساعدة مقدمي الطريقة الرحمانية ونذكر منهم :

01 ـ الشيخ صديق واعراب : وهو من عائلة شريفة محترمة لها معمرة (زاوية) في تيزي راشد ، متوسطة الثقافة ، وكان قناصا ماهرا ، ولم يكن بالرجل الحربي وتأثيره يعود إلى ذكائه ونسبه ، وبغضه الشديد للفرنسيين ، وهو الذي تزعم قبيلة آث إيراثن في معركة 28 ماي 1837 بمنطقة يسر ، وبمشاركة قبيلة آث جناد ، وقد صدت بها القوات الفرنسية منعا لها من الزحف إلى ماوراء يسر .

وهو الذي حرض السكان على العصيان وسط السوق يوم 30/01/1855 عندما تقدم أمام الجميع رافعا علم الزاوية ، وهدد القياد بألفاظ قاسية ، وتحذيرات مرة خطيرة فتدخل بعد ذلك الباشاغا محمد أوقاسي الذي عمل على إرسال قوات مسلحة لإخضاع المتمردين التابعين للشيخ واعراب بآث ايراثن يوم 09/02/1855 ، وللرجل مواقف كثيرة لايتسع المقام لتناولها جميعا .

02 ـ الحاج اعمر : وهو قيم زاوية الشيخ محمد عبد الرحمن بآث اسماعيل وهو زوج الشيخة فاطمة إحدى بنات الشيخ علي بن عيسى الخليفة الأول لمؤسس الزاوية وهو أبرز

من وقف في وجه سي الجودي بعد تحوله من صف المقاومة إلى ضدها ، وقبوله لمنصب (آغا) في ناحية واضية التابعة للحاكم الفرنسي بذراع الميزان .

وقد كان يحضر لثورة شاملة تعم البلاد ، ويشرف فيها هو على ناحية ذراع الميزان ويشرف الشيخ واعراب على ناحية تيزي وزو ، ويشرف صديقه سي محمد بن عبد الرحمن عل ناحية بني منصور ، وغير ذلك من المناطق ، ولو أن هذه الخطة لم تحقق نجاحا كبيرا ولكنها كانت بداية لانتفاضة عام 1857 ، ففي تقرير وجهه (دوفو) من تيزي نثلاثة بذراع الميزان وبتاريخ 24/08/1856 يشير إلى أن الحاج اعمر تمكن من جمع مختلف القبائل بالمنطقة ، حتى القبائل الخاضعة لفرنسا وزحف بها على البرج الذي كان فيه الجودي بالواضية ، وقد قتل في هذا الهجوم أحد أعوان فرنسا وهو القايد سليمان بن كفيف ، كما قتل عسكري ، وجرح خمسة ومنهم الضابط (دوفو) نفسه ، ثم أحرق البرج ، ولكن سي الجودي قد هرب .

وهو الذي زحف بنفسه يوم 02/09/1856 على رأس إخوانه إلى الحصن المركزي بذراع الميزان ، وتواصلت المعارك حول هذه المدينة الى غاية يوم 22 من الشهر نفسه حتى تم الإستنجاد بقوات كبيرة من الجزائر ، والبليدة ، وسور الغزلان تحت قيادة الجنرالات : يوسف ، رونو ، راندو ، ، قاسطو ، وقدرت تلك القوات بسبعة آلاف رجل ، ومعهم 198 ضابطا ، ومن جملتهم رمز البطش والقهر (بوبريط) الخبير بالمنطقة ، وهو الذي بنى حصن ذراع الميزان عام 1851 وقاوم بوبغلة في المنطقة مدة طويلة .

وهو الذي ساعد بوبغلة على نقل عائلته (نسوة) من إيلولا أومالو ولكونها منطقة محفوفة بالمخاطر إلى قرية أولاد علي قرب واسيف ، وبمجرد أن علم بوبريط حاكم ذراع الميزان بخبر عائلة بوبغلة أمر الباشاغا سي الجودي بإلقاء القبض عليها وقبل السكان تسليمه بعد التهديد ، ولكن زوجة الحاج اعمر تدخلت بسرعة وهددت السكان بتسليم نفسها معهن ، ونظرا لمكانتها المحترمة تراجع السكان عن قرار التسليم ، وأخفيت عائلة بوبغلة في قرية بوعبد الرحمن ببني واسيف ، حيث يقيم الحاج اعمر بعد أن هرب من مضايقات بوبريط ، ثم نقلن مرة أخرى إلى بني يني إمعانا في التخفي ، ثم التحقن بلالة فاطمة نسومر حتى اعتقلن معها عام 1857م .

03- إخوة لالة فاطمة نسومر : سي الطاهر قيم زاوية سيدي محمد أمزيان سي محمد ، سي شريف ، وسي الحاج كلهم من المقاومة ، كان لأختهم فاطمة دور شرف وحسب

رواية بيري (PERET) فإن لالة فاطمة نسومر، وهي سليلة الطريقة الرحمانية والتربية الروحية العالية، قد تزعمت المقاومة في المنطقة منذ عام 1854، أي بعد أن وصلت القوات الفرنسية بقيادة راندون (RANDON) إلى جبل سبت ناث يحي (عين الحمام) وكانت لها اتصالات بالزعيم بوبغلة وشاركا معا في معارك طاحنة ، حتى أن بوبغلة جرح في إحداها وأنقذت حياته ويشير هذا الكاتب إلى أن بوبغلة طلبها للزواج ، ولكنها مازالت في عصمة زوجها السابق سي يحي بوخولاف الذي رفض تطليقها [1] .

04 ـ الشريف بوعود، ومولاي ابراهيم الذي ارتبط بزاويتي سيدي أحمد بن ادريس بإيلولة أومالو ، وزاوية سي أحمد والسعيد في عذني وبني عيسى وأحمد بن سالم : حاول هؤلاء الثلاثة أن ينسقوا العمل فيما بينهم بجبال جرجرة وحصلوا على أسلحة ومساعدات مادية من الشيخ المبارك شيخ الزاوية الرحمانية بآيت بويعلي في بني دوالة (2) وتولى مولاي ابراهيم كتابة الرسائل إلى عدد من الزعماء بالمنطقة دعاهم فيها إلى حمل السلاح لمحاربة الفرنسيين ، وامتد تأثيرهم إلى مناطق أخرى : جبال البابور ـ جيجل ـ القل .

05 ـ الشريف بوحمارة : وهو ابن السي قويدر التيطرواي المنتمي للطريقة الدرقاوية الذي انزوى عند بني بوشنافة ، بعد وفاة بوبغلة ، ولما كانت شهرته لاتسمح له بالظهور كشريف جديد ، قدم ابنه على أساس أنه (مول الساعة) وظهر لأول مرة عند بني راثن بلباس درويش ممتطيا أتانا ، ولهذا أطلق عليه لقب بوحمارة أما اسمه الحقيقي فهو المختار بن قويدر ، إلا أنه ظهر باسم يحي بن يحي أخ الشريف يوسف الذي قتل عام 1849 بالشرفة وبسببه قرر الحاكم العام للجزائر يوم 29/10/1855 تعيين النقيب (BETHUNE) على مركز تيزي وزو ، وفصل سباو عن دلس . وهكذا لم تتمكن قوات الإحتلال من السيطرة على منطقة القبائل إلا عام 1857 أي بعد 27 سنة من سقوط الجزائر ، وهذا يعود لسببين على الأقل :

1. مناعة المنطقة باعتبارها جبلية في معظمها .
2. قوة المقاومة التي أبداها السكان .

وقد استعملت فرنسا قوات جرارة ، وخاصة بعد توقف المقاومة في بقية جهات الوطن ، وما حملة المارشال راندون عام 1857 بتلك الحشود الهائلة في عدد الجنود والضباط والعتاد المجموع من مختلف جهات الوطن لكسر مقاومة تقودها بجنود مسبلين ، فلقبوها

بجندارك الجزائر ، ولكن لالة فاطمة نسومر أرفع قدرا وأنبل أخلاقا من جانداركهم .

وأن المعمرات قد أدت دورا عظيما في المقاومة في كل الفترات وذلك إيمانا بأن مقاومة الاحتلال الأجنبي واجب ديني .

غير أن الذي تأثر له السكان كثيرا هو أن تتمكن فرنسا من كسب بعض الرجال الذين كانوا في المقاومة إلى جانبها ، ويذعنون لأوامرها ، وكان لاستسلامهم الخطر الداهم على المنطقة مثل : أحمد بن سالم خليفة الأمير عبد القادر ، وبلقاسم أوقاسي الذي أصبح باشاغا منطقة سباو .

أما الأول فقد شدد عليه الخناق عام 1847 وسمح له بالهجرة إلى دمشق وتوفي بها عام 1857 ، وهكذا وجد أتباع الأمير عبد القادر بالمنطقة أنفسهم دون قيادة ولاتنظيم ، فأصبحوا يساندون مختلف الزعماء الذين ظهروا فيما بعد .

أما الرجل الثاني فأصبح بعد استسلامه عام 1847 خادما للمصالح الفرنسية ناقما على كل مقاومة .

مقاومة 1871 : بالرغم من انعدام تكافؤ القوى بين الشعب الجزائري وبين المحتلين ، فإن المقاومة لم ينطفئ أوراها ، فما يكاد يخمد لهيبها هنا .. إلا ليشتعل هناك .. بفضل ذلك الوقود الروحي الذي يعاف المهانة والخضوع للكفار ، فقد قامت الزاوية والطرق الصوفية بنفخ شرارة الجهاد ضد الغاصبين في كل حين وسنبقى نتذكر الشيخ الحداد مقدم الزاوية الرحمانية بصدوق وقد تجاوز الثمانين من عمره ، وهو يجول في الأسواق رافعا راية الجهاد لثورة عارمة عام 1871م ثم يخلفه ولده سي عزيز الذي لقب بـ (أمير المجاهدين) وهو لقب غير مبالغ فيه ، إذ ألحق بالفرنسيين أكبر الضرر 1 .. فنفي بعد اعتقاله إل كاليدونيا الجديدة عام 1881 ونفيت أسرته وإخوانه إل قبرص ، وقد أوصى الشيخ الحداد قبل وفاته في السجن ـ أخذا بالإحتياط لضمان مواصلة الدعوة الروحية ـ استخلاف سي الحاج الحملاوي من بعد وفاة ابنه العزيز .

ويشاء الله عز وجل ألا تنطفئ جذوة المقاومة في أسرة الأمير عبد القادر ليظهر حفيده الأمير خالد ، وكون نواة لحركة سياسية صلبة تصل إلى إشعال ثورة التحرير الكبرى ـ وتنتهي باسترجاع السيادة الوطنية .

وقد قامت فيها الزوايا بوظيفتها الأصلية ، فجرعتها فرنسا الحاقدة مرارة الهدم والقتل والتشريد لشيوخها وطلابها ومريديها .

وخير مانستشهد به لقالة الغمط ، ولكل المترددين والمتشككين في فضل الزوايا والطرق الصوفية على استمرار المقاومة الشعبية في الإنتفاضات المتعددة وفي ثورة التحرير المظفرة هو أن نحيلهم :

أولا : إلى مقابر الشهداء في المناطق والقرى التي بها زوايا ليقارنوا بينها وبين غيرها من المناطق والقرى الخالية من الزوايا .

ثانيا : إلى الإطلاع على كتابات الضباط الفرنسيين الذين استشهدنا بأقوالهم في هذه الدراسة ، وغيرهم .

ثالثا : إلى الإطلاع على كتاب شهداء منطقة الأوراس الجزء الأول من إنتاج جمعية رواد مسيرة الثورة في منطقة الأوراس الصادر بتاريخ 2002 الذي تناول جوانب من حياة 144 شهيدا وسيكتشف المطلع أن أغلبية هؤلاء الشهداء لهم ارتباط بالزوايا أو بالطرق الصوفية .

وإن الأمر نفسه الذي سيتأكد لمن يتناول تراجم حياة الشهداء منطقة القبائل وغيرها من المناطق .

إذ ما من ثورة تغييرية في التاريخ إلا وقد سبقتها حركة فكرية نفسية فالثورة الفرنسية عام 1789 على سبيل المثال مسبوقة بثورة فكرية مازال روادها يشار إليهم بالبنان : (فولتير ، روسو ، هيجو ... وغيرهم) .

ولولا جهود الزوايا لما وجد الأمير خالد بعد الحرب العالمية الأولى أنصارا ومؤيدين ، ولاوجد الشيخ عبد الحميد بن باديس عقولا مهيأة لفهم دعوته البعيدة المرامي ، وإدراك جهاده في سبيل تحرير هذا البلد [1] .

وإن المزج بين الدين والوطنية هو النواة الحقيقية للحركة الجادة التي هزت كيان العدو في الصميم .

إذ أن كلمة السر في ليلة أول نوفمبر بين المجاهدين هي : (خالد عقبة) وهتاف الجميع أمام العدو ، وعند تنفيذ العمليات بالعبارة المقدسة (الله أكبر) وكانت البداية ، وكانت النهاية .

وكيف يهزم أبطال لنا شفعوا رمي الرصاص بتكبير وإهلال وإن الوقوف على مقابر الشهداء بمنطقتنا هذه ، أو بغيرها ، يؤكد لنا الخلفية الروحية لثورة التحرير (1962/1954) التي كانت بعد ثورة شعبية ، ولم تكن - كما تزعم الإدارة الفرنسية - ثورة قطاع الطرق أو فلاقة ... .

فقد ضرب الشعب بثورته أروع الأمثلة في الإنسانية ، كالعفو عن المساجين من جنود العدو وإطلاق سراحهم في مواقف عديدة ، والترفع عن الإعتداء على المدنيين ماداموا مسلمين ، بل ترفع فوج المجاهد محمد بن صدوق في 27 ماي 1957 عن تصويب رصاصة واحدة نحو الرئيس الفرنسي (روني كوتي) في ملعب كولومب بباريس والتزم هذا المجاهد البطل أوامر قيادة جبهة التحرير بالقضاء على الخائن (علي شكال) الذي كان قرب الرئيس الفرنسي .

وهكذا تعالت قيم الشعب الجزائري على الإستدمار الوحشي للجيش الفرنسي ولقن لشعوب العالم درسا لامثيل له في الإنسانية ، وليس من الضروري أن نتناول وحشية الجيش الفرنسي ، فهي أكبر من أن تحصى .. إذ مازالت بعد قرن ونصف من حكم (بوبريط) على دائرة ذراع الميزان وغيرها ألسنة الناس تلهج بوصف البطش والقهر بقولها : (واقي ذلحوكم ن بوبريط) .

ولقد واكبت القصائد الشعرية الأمازيغية أحداث المقاومات الشعبية بالمنطقة وكذا ثورة نوفمبر المظفرة ، ونذكر من بين الشعراء المشهورين على سبيل المثل لا الحصر : الشيخ/ الحاج سعيد بو لماقشوم - سليمان عازم - فريد علي . . وغيرهم .

كما يمكن أن نذكر من القصص البطولية الخالدة . . قصة خنساء القبائل - حسب تعبير الكاتب محمد الصالح الصديق - وهي قصة امرأة دفعت بابنها الوحيد إلى ساحة الجهاد وميدان الشرف ، ولما سقط شهيدا ، وجيء به إلى ساحة القرية وأمام السكان تنكيلا وتخويفا لغيره ، فتعرف عليه الجميع ، وأجهشت أمه بالبكاء . . ثم الزغردة فتقدم إليها أحد الخونة ، وقال لها : ماذا نفعك تحريضك أياه للجهاد فأجابته بشجاعة لم يتوقعها . . إنني أبكي على عدم قدرتي على إنجاب غيره ليقضي على أمثالك .

وقصة مجاهد طاعن في السن ، قد تحصن في معركة من معارك المنطقة وراء صخرة وظل رشاشه يحصد كل من يظهر من جنود العدو إلى أن سقط شهيدا فتقدم إليه الضابط الفرنسي بحذر شديد ، وازدادت دهشته حينما شاهد لحيته البيضاء ، وتجمد أمامه هنيهة ثم مد يده إلى قلنسوة برنوسه ، فاستخرج منها ما أبكمه وأفحمه ... إنه مصحف القرآن الكريم وكسرة رغيف شعير يابسة وبصلة . فاضطربت الأفكار في رأس الضابط جنح به الخيال ... إلى أن تيقن أن ساعة خروج جيشهم الذي أمطرته خيرات الجزائر قد أزفت ... فتنهد مليا ، ثم أكفهر أمام جنوده يلومهم ويوبخهم وهو ممسك بكسرة الرغيف محاولا

تفتيتها وتمزيقها وكأنها هي أرض الجزائر وصخور الجزائر ، وقلوب أهل الجزائر .

وقصة ثالثة لطفل جزائري تعود الجنود الفرنسيون أن يبعثوه ليحضر لهم الماء في الأوعية الخاصة بالجنود ، وتسع تقريبا لترا واحدا ، من عين ماء يبعد بعض الشيء عن الثكنة ، وقد كان الطفل يسمع أو يشاهد أحيانا ألوان التعذيب التي يتعرض لها السكان فاهتدى إلى وسيلة للمقاومة تعد أغرب شيئ ينتبه إليه ، وهي أن يفرغ في كل وعاء كمية من بولته الحارة تنجيسا لبطون الأعداء المليئة بالطعام الشهي ، وثأرا للبطون الفارغة من الطعام ولو كان غير شهي ... .

ولاسيما وأنه قد سمع من معلمه بكتاب القرية أن الجنود الفرنسيين هم السبب في أمية الآباء ، وقلة الدواء ، وأنهم كفار ووباء فلا يجوز الصدق معهم ولو كان بالإغراء وأن كل سعي لمحاربتهم يستحق الثناء ... .

وبهذا - وغيره - ندرك أن المقاومات الشعبية ، وثورة أول نوفمبر ، لم تكن مجرد حركات للقتال هنا أو هناك ... لغرض عرضي ، وإنما هي فلسفة ذات جذور في أعماق النفسية الجزائرية ، وإنما هي فكرة الإسلام في غير تعصب ديني وتشبث بالقومية من غير تعصب عنصري ، وتعلق بالوطن في غير تعصب جهوي .

ففي حمى هذه المقومات جاهد الأمير عبد القادر والشيخ الحداد ، وابن مهيدي وعميروش وديدوش ... وغيرهم من الأبطال المشهورين والمغمورين ، حتى انتصر الشعب الجزائري الضعيف على فرنسا القوية ، وانتصر الرجل الأمي البسيط على الجندي الفرنسي المتعلم المتكون ، وانتصرت البصلة وخبز الشعير على لحم الخنزير (الكومبير) وليس هذا الإنتصار خروجا عن القاعدة ، ولا عن طبيعة الأشياء ... وإنما هو الروح التي تسري في هذا دون ذاك ، إنه الإيمان والقيم والأخلاق ... وليس دعوة منا للتهوين من شأن القوة المادية ، وتحصيل الخبرة الميدانية في كل القضايا لقوله تعالى : « وأعدوا لهم مااستطعتم من قوة ... » إن القوة الروحية قبل القوة المادية ، وإن أعدائنا لايفتأون من نسج المكائد والمؤامرات لتشويه شخصيتنا الإسلامية من أجل تمزيق وحدتنا وتوهين قوتنا والإستيلاء على خيراتنا .

المراجع

- يقول برنوس الحكم (قايد - آغا - باشاغا) مثل بلقاسم أوقاسي ، وأخوه محمد ، سي البوذي ، ابن علي الشريف ، لخضر المقراني ، وغيرهم .
2 - لسان العرب ابن منظور ج 12 .
1 - محاضرة الأستاذ محمد الطاهر عزوي بالملتقى الوطني الثاني حول البعد الروحي في ثورة التحرير - نشرة وزارة الشؤون الدينية ص 126 .
2 - ROBIN (NOTES HISTORIQUES (P . 64 sur la grande kabylie de 1830)
3 - مصطفى الأشرف - الجزائر : الأمة والمجتمع ص 415
1 - محمد بن سمينة - العامل الروحي في الثورة المباركة - الملتقى الوطني الثاني - نشرة وزارة الشؤون الدينية ص 220
2 - المرجع السابق
Les khouan ordres religieux chos les musulmans de L'Algérie édition Alger - 1913 p : 153 .
- تقرير شارون الحاكم العام الفرنسي في الجزائر - وهو موجود بآكس بروفانس بفرنسا A.O.M - AH6 .
- الجابهة الثقافية في الجزائر المستعرة
- محمد سي يوسف - مقاومة منطقة القبائل ص 38 .
1 - محمد سي يوسف - مقاومة منطقة القبائل للإستعمار الفرنسي وثورة بوبغلة ص : 26 .
2 - المرجع السابق .
1 - محمد سي يوسف - مقاومة منطقة لاقبائل ص : 71 نقلا عن (RIBIN / LES IMESSEBELEN) .
1 - شارل اندري جوليان - افريقيا الشمالية تسيير ص 133 .